

# نزيف العراق: تصعيد العنف والتهجير الوحشين

أشرف الخالدي وفيكاتور تانر

أفراد العائلة أو الأحبة إلى إحدى الجماعات المتطرفة تقع كل العائلة والاقارب في فخ هذه الجماعة.

## المتشددون

منذ تفجير المسجد الشيعي، مسجد سامراء الذهبي في شباط عام ٢٠٠٦ اجتاحت موجات مفاجئة من الهجمات وعمليات الثأر البلاد والتي كانت بمثابة نهاية التحفظ الذي كان حتى ذلك الوقت سمة من سمات ردود فعل الشيعة تجاه الهجمات الموجهة ضدهم، أما الآن فالعنف مشترك من كلا الطرفين، فبينما تفضل المجموعات السنية سلاح تفجير السيارات المفخخة، تفضل فرق الموت الشيعية المتطرفة الاختطاف والاحتجاز والتعذيب والقتل.

ولا يمكننا القول أن العنف تلقائي أو حتى شعبي. وسواء توجهنا بالسؤال إلى ممثلين سياسيين أو حتى مواطنين عراقيين من العامة حتى أولئك الذين شردهم العنف تجد أن السبب وراء العنف برأيهم هي أقطاب واتجاهات دينية وهي: مكتب مقتدى الصدر والمجلس الأعلى الإسلامي العراقي من جهة الشيعة، وهيئة علماء المسلمين في العراق والحزب الإسلامي السني من جهة السنة.

وينظر الزعماء المتشددون في كلا الجانبين إلى مشاكل العنف والنزوح الحالية على أنها يشكّلان امتداداً لجذور تاريخية حيث يشير زعماء الشيعة إلى تاريخ القمع والاضطهاد الذي واجهه الشيعة على يد السنة في العراق. وفي مقابلة في النجف مع احد مسؤولي المجلس الأعلى الإسلامي العراقي حيث قال: "تعرض الشيعة للقتل منذ وفاة النبي. وفي الواقع لا نرى الفرق بين سلوك الاموين وبين صدام أو الزعماء السنة المتطرفين الحاليين"، بينما يقول مسؤول تابع للصدر: "الخطة برأينا واضحة جداً حيث يرغبون بإبادة الشيعة في بغداد وديالى من أجل أن إنشاء دولة طالبان في المناطق السنية".

"لن أعتقد أبداً بأن هناك فرق بين البشر. أنا من السنة وزوجتي من الشيعة. ولقد تلقيت تهديدات لإرغامي على تطبيقها. وإلا فالموت محتم لقد تركنا 'الدورة' في قلب بغداد وهي منطقة كان يسكنها في الماضي خليطاً من كلا الفئتين لكن يسيطر عليها السنة الآن. وتقطن زوجتي حالياً مع عائلتها في 'الشعاب' وهي منطقة تابعة للشيعة. أما أنا فأقيم مع أصدقائي في 'المنصور' وهي منطقة سنية. وأنا أحاول العثور على مكان آخر ولكن من الصعب العثور على مكان يرحب بـكلينا". فنان عراقي شاب.

وهو توتر يتواجد عادة في أي مجتمع متعدد الثقافات. ولكن في عام ٢٠٠٣ ومع انتشار الذعر والهلع على يد ذلك النظام، أصبح العديد من العراقيين يتوقون لحياة طبيعية يسودها الأمن والنظام وسيادة القانون، خصوصاً بالنسبة إلى المجتمعات الشيعية التي ذقت الأمرين خلال حكم صدام.

وحتى اليوم لا ينظر العراقيون إلى ما يحدث في العراق على أنه حرب أهلية، أو على أنها حرب بين الجار وجاره، بل يعتبرون أن الوضع ناجم عن أعمال وتصرفات مجرمين سفكة من كلا الجانبين يهددون حياة المدنيين، وتحاول أعداد متزايدة من الناس العاديين حماية أصدقائهم وجيرانهم، حيث سرد الشيعة الذين نزحوا من الموصل والفلوجة والذين تمّت مقابلتهم في الديوانية عام ٢٠٠٦ قصصاً من هذا القبيل عن العائلات السنية التي حاولت حمايتهم وأصبحت نتيجة لذلك هدفاً لتهجمات المتطرفين من السنة، كما وردتنا قصص مشابهة من الطرف الآخر، مثلاً من حي الجامعة في بغداد، حيث سمعنا عن حادثة استهدف فيها مجرمون شيعة بقالاً سنياً محلياً وعندما احتج جاره الشيعي على ذلك قاموا بقتله هو أيضاً.

لكن الوضع في تأزم مستمر حيث يتغلغل العنف في جميع أنحاء المجتمع، وحيث يضطر العديد إلى الإنتماء إلى جماعات متطرفة بسبب عدم توفر أي خيار آخر، فإما أن يتعاونوا معها أو يعتبروا ضدها، وإذا اختاروا عدم التعاون فلا حل أمامهم إلى الفرار أو مواجهة الموت في أغلب الأحيان، وحال انضمام أحد

يعكس هذا التعليق الذي أفضى به فنان عراقي شاب إلى صديق له الصيف الماضي جوهر التناقض المؤلم الذي يعتصر المجتمع العراقي بعد أربعة أعوام تقريبا من بدء الغزو عام ٢٠٠٣ والذي تسبب في تقلبات هائلة في المجتمع العراقي، حيث كان العراق ولقرون طويلة خلت مجتمعا تختلط وتتداخل فيه الأعراق والثقافات والأديان والمذاهب، حيث يعمل الناس ويعيشون جنباً إلى جنب، مقارنة بالعراق الحالي، عراق العنف الطائفي، ذلك العنف الذي أجبر الملايين من العراقيين على الفرار وترك بيوتهم إما كلاجئين إلى دول مجاورة أو كنازحين مشردين داخل حدوده.

## تاريخ التعايش العراقي

يشكل التعايش جزءاً طبيعياً من الحياة في العراق، فلطالما كانت بلاد الرافدين بقعة للاندماج والتجانس عبر التاريخ كما يعكسه العراق في الحاضر، كما كانت المدن الرئيسية الثلاث، بغداد والبصرة والموصل، مراكز تجارية وتعليمية عالمية عبر القرون، حيث وإن لم توجد الإحصائيات الرسمية فإن عدداً كبيراً من الزيجات المختلطة ويصل عددها إلى نحو ثلث مجمل الزيجات وفقاً لمقال صادر عن "واشنطن بوست" في آذار عام ٢٠٠٧. وبالطبع تساند هذه النظرة حقيقة أن القبائل الأكثر قوة وصيتاً على الإطلاق في العراق تجمع بين السنة والشيعة.

وصحيح أن نظام صدام استند على الفروق بين الشيعة والسنة، بالإضافة إلى تلك بين العرب والأكراد وساهم في ازدياد التوتر بين الطوائف

فرت هذه المرأة  
العراقية من مدينتها  
بعد أن تسببت  
قذيفة هاون في قتل  
عدد من الأطفال



النساء لبس السراويل والرجال من الحلاقة. العقوبات التي تلحق بالمتجاوزون تكون وحشية وأحياناً مهلكة، أما في حي الدورة في بغداد والذي يقع تحت سيطرة المتشددين السنة فتفيد الأنباء الواردة أن المسيحيين ملزمون على دفع \$١٠٠ شهرياً كجزية.

ونجد الآن أن سياسة زعماء الحرب تسود في كلا الجانبين: المعتدلون ومن يحتجون على العنف يصبحون هدفاً لعمليات الإرهاب والقتل، والضمان الوحيد للبقاء على قيد الحياة هو الصمت.

### تزايد التعصب

أما التطور المشؤوم والقبيح الآخر هو تغلغل وجهات النظر هذه في الرأي العام حيث تتسبب الطبيعة اللإنسانية للعنف وتغلغلها التعصب وانعدام الثقة خصوصاً بين الشباب.

لكن هناك بضعة أصوات معتدلة في العراق اليوم حيث أدلى العديد من الزعماء الوطنيين بتصريحات مجابهة وبشكل محدد ضد الاطاحة بأية الله علي السستاني في تموز ٢٠٠٦، كما أدانوا "الفتنة طائفية"، و "العنف

يعتبرونهم تابعين لجماعتهم في أراضي الآخرين للسيطرة على المصادرة المتوفرة فيها. وفي ظل غياب سلطة الحكومة المركزية وصعوبات تأكيد سلطتها في تلك المناطق تلعب الفئات المتطرفة دور الحماية وموفري الرزق للفئات الأضعف، بينما يكون النازحون ضحية لهذا العنف الداخلي المميت بين المجموعات المختلفة ضمن كل من الجماعتين الرئيسيتين.

ومع زيادة قوة ونفوذ المجموعات المتطرفة تتزايد وحشية وتطرف ممارساتها المبنية على الاضطهاد والكبت. في مدينة الصدر يقول السكان أنهم يشعرون بارتياح كلما خاض جيش المهدي عمليات خارج المنطقة لأنهم يكفون عن مضايقة أهل المنطقة عند انشغالهم بهذه العمليات الخارجية، أما في منطقة الوشاش التي كانت تضم كلا الفئتين سابقاً وهي الآن تحت حكم الشيعة فيلزم السكان الشيعة برفع الرايات السوداء كدلالة على الولاء والإخلاص.

على نفس النمط وفي أحياء بغداد السنية في الغزالية والخضراء تفرض كتيبة عمر قانون شريعة صارم في تصميمه يشبه قوانين الطالبان: التدخين ممنوع ويحظر على

أما بالنسبة للمتشددين من السنة فإن جوهر الوضع هو الطائفية حيث ينظرون إلى العراق 'الجديد' على أنه من صنع المصالح الأمريكية والإيرانية، مكان لا يمكن للسنة الانتماء له، وبينما أعلن مسؤول هيئة علماء المسلمين في العراق في الموصل أن "الخطة الإتحادية الجنوبية تسمح للتحالف السياسي الشيعي بالسيطرة على النفط في الجنوب وتترك السنة عزل وفقراء"، صرح مسؤول لجنة الوقف السنوية في بغداد أن الهجمات ضد السنة "هي خطة منظمة ضد العرب السنة، مما يقودنا بالطبع إلى التساؤل عن المسؤول عن التفجير في سامراء"، مما يشكل مثلاً واضحاً على المزيج من الشك وسوء النية التي تحل محل التفكير والكلام العقلاني نتيجة للعنف الشديد في المنطقة.

ويشكل العنف واستمراره مبرراً لتواجد واستمرار هذه الفئات المتشددة، فهو السبب الذي تعتمد عليه الجماعات المتطرفة لتبرير نشاطاتها، وتستخدم النازحين كأحجار شطرنج يستعملها قادة تلك الأحزاب لتوسيع مناطق نفوذهم حيث يسعون لطرد الآخرين من هذه المناطق لتحقيق السيطرة الكاملة على مصادر هذه المناطق، كما يحاولون إبقاء بعض ممن

- بشكل رئيسي مدن وبلدات الشمال الكردي والجنوب الشيعي (ماعدا البصرة).

ومن الصعب تقدير أعداد النازحين والمهجرين، والأرقام الرسمية الوحيدة صادرة عن وزارة التجارة المسؤولة عن توزيع التموين والحصص الغذائية، لكن قد تسعى الأخير إلى التقليل من حجم المشكلة العامة، إضافة إلى أن العديد من النازحين والمهجرين لا يسجلون للحصول على هذه الحصص، إضافة إلى التلاعب الحاصل في أعداد النازحين داخلياً، خصوصاً تلك التي تنشرها الأحزاب السياسية، والرقم المتداول والمقبول للنازحين داخل العراق بعد التفجير في سامراء هو ٧٠٠ ألف نازح داخلي، وبحلول شهر آذار عام ٢٠٠٧، قدرت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وجود حوالي مليوني لاجئ عراقي يعيشون في سوريا والاردن، ومن الممكن أن يتزايد الضغط على البلدان المذكورة نتيجة لبدء المحافظات الجنوبية في العراق بالحد من دخول النازحين الداخليين إليها من أنحاء أخرى من العراق والذين لا ينتمون إلى القبائل المحلية أو الذين لا يوجد لديهم أقارب فيها يمكنهم الإقامة معهم.

ولا يشكل العنف الطائفي السبب الوحيد للنزوح والتهجير، فمن الأسباب الأخرى انعدام سيادة القانون والتي ترتبط عادة

### تزايد مستمر في حالات النزوح

كان النزوح القسري بسبب العنف في العراق قبل بدء الحرب عام ٢٠٠٣ ميزة رئيسية من ميزات حكم صدام حسين، واليوم تستمر الجماعات المتطرفة اليوم في ذلك المسلك: إستعمال عنف التشريد ضد المدنيين كأداة لتأكيد السلطة السياسية. والنمط الرئيسي للتشريد يمحور في تعزيز مناطق النفوذ عن طريق توظيف المجموعات المسلحة المتطرفة. ولا حل أمام العراقيين إلا الهرب إلى المناطق الأكثر أماناً الموافقة بحيث يذهب السنة إلى المناطق السنية ويذهب الشيعة إلى مناطق الشيعية، بينما يذهب الأكراد وبعض العرب إلى المحافظات الشمالية والمسيحيين يذهبون إلى أجزاء محافظة نينوى، وأغلب القادرين على ترك البلاد يتكونها والنتيجة: تمتين قبضة الجماعات المتطرفة على المناطق التي تم 'تطهيرها' وزيادة سلطتها ونفوذها في هذه المناطق.

كما يزداد العنف في المدن الأكثر إختلاطاً طائفيًا وعرقياً مثل شمال بابل ومحافظة صلاح الدين والموصل والبصرة وخصوصاً بغداد التي شهدت عنفاً لم يسبق له مثيل، ومن ناحية أخرى تشهد بعض المناطق نطاقاً محدوداً من العنف وهي المناطق التي تتمتع بتواجد سلطة محلية ناشطة

المبتادل" و "حملات التهجير القسرية". لكن ولخيبة أمل العديد من المعتدلين الشيعة (والمعتدلين العراقيين إجمالاً) يبدو أن نفوذ المعتدلين أخذ بالانحسار مع تزايد نفوذ المجموعات الشيعية المتطرفة وبروز القادة الشيعيين الشباب.

واستجابة لهذا التصاعد في دائرة العنف بدأت العديد من الجاليات المحلية، من كلا الطرفين، بتأسيس لجان دفاع لحماية مناطقهم، لكنهم يفتقرون للمصادر والمعادات اللازمة: الأسلحة والمولدات والوقود، ولذلك فهم ملزمون بالانتماء إلى المجموعات الأكبر مثل جيش المهدي الشيعي أو كتيبة عمر السنية، مما يزيد من فتيل المشكلة، وتزداد بالتالي قوة ونفوذ الجماعات المتطرفة على المستوى المحلي.

ومما يزيد الطين بلة أن القبائل من كلا الطرفين التي كانت تلعب دوراً مهادناً للعنف في المدن، وبشكل أكبر في المناطق الريفية، بدأت وبشكل متزايد تشعر بالقلق، وأي نزاع مسلح علني بين المجموعات القبلية سيؤدي إلى نزاع مسلح منظم ينتشر في المدن والقرى بشكل لم نشهد له مثيلاً من قبل.

لاجئ عراقي في  
مطعم شعبي  
في عمان



أن نعود إلى بيوتنا في بغداد. لقد اتصلت ببعض جيرانى السنة وأعلموني أن المتمردين ما يزالون يستخدمون منزلي كمركز عمليات، فكيف يمكننا العودة؟“

لقد بدأ العراقيون بإدراج العنف في أسلوب حياتهم، حيث يملئ الخوف عليك مكان تسوقك ومستشفى علاجك - أو حتى أي مكان تود ارتياده سواء كان المدرسة التي ستسأل أطفالك إليها أو نوع الركاب في سيارة التاكسي والأماكن التي يمكنك توصيلهم لها وأي أصدقاء تزورهم، الخ.

هناك مهنة جديدة في بغداد اليوم حيث يمكن للبعض جراء تسديد الأجر المحدد أن يقوموا بنشر النفايات والبحث في ضفاف الأنهار للعثور على جثة شخص عزيز مفقود. إلى متى يمكن للعراقيين العيش مع مثل هذا العنف الدائم؟

”أتمنى بأن يهاجمونا بقنبلة نووية تقتلنا كلنا، بذلك سوف نرتاح...“ قال عراقي لمراسل النيويورك تايمز بعد ٣ شبات يوم انفجرت قنبلة في سوق بغداد وقتلت أكثر من ١٣٠ شخص وجرحت أكثر من ٣٠٠ آخر، ”نحن لا نستطيع متابعة الحياة بهذه الطريقة حيث نموت ببطء كل يوم.“

ويرى النازحون والمهجرون وبشكل متزايد أن ما حدث لهم يعكس الإنقسامات السياسية المتأصلة في البلاد، كما يتسبب العنف في تغيير دائم في تركيبة العراق الاجتماعي والسكاني، وهو ما ترغب المجموعات المسلحة المتطرفة في كلا الجانبين تحقيقه، ويبدو أنهم نجحوا في تحقيق أهدافهم.

أشرف الخالدي باحث عراقي مقره في بغداد يكتب تحت اسم مستعار وفيكتور تانير (victortanner@cs.com) من المؤلفين المشاركين 'عنف طائفي: تقود الجماعات المتطرفة الى التشريد الداخلي في العراق'، نشر مؤسسة بروكنجز من مشروع بيرن عن التشريد الداخلي في تشرين الأول ٢٠٠٦. [www.brookings.edu/fp/projects/idp/200610\\_DisplacementinIraq.htm](http://www.brookings.edu/fp/projects/idp/200610_DisplacementinIraq.htm). تم نشر هذه المقالة أولاً بصيغة مختلفة قليلاً، في عدد نيسان ٢٠٠٧ من مجلة "اللاجئون" الصادرة عن مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

١. www.almejlis.org

٢. <http://heyetnet.org/en/index.php>

٣. السلافة الإسلامية الأولى

ويشكل الهلال الأحمر العراقي وكالة الإغاثة الوطنية الوحيدة التي تستجيب وتتعامل النازحين والمهجرين، وينشط الهلال الأحمر بشكل رئيسي في المخيمات والمستوطنات الجماعية، كما تقوم المجتمعات المحلية أحياناً بتوفير الدعم والمساعدة للنازحين والمهجرين عن طريق لجان غير رسمية محلية وعن طريق المساجد، بينما كانت المساعدة الدولية ضئيلة ومحدودة مؤخراً وتحاول في الوقت نفسه العمل بشكل مستمر بسبب الوضع الأمني.

### تضائل الأمل

من الصعب تفهم وإدراك مدى تأثير العنف الطائفي، حيث تفصل الطرق المهجورة والأبنية المهملة، كما لو كانت أرضاً حراماً، أحياناً كان من الصعب التفريق بينها في الماضي، بحيث يتوجب على شركات النقل تبديل الشاحنات لنقل البضائع بين منطقة وأخرى لأن بعض الطرق مغلقة في وجه بعض المجموعات الطائفية أو الدينية. لكن أسوأ ما في الأمر هروب النخبة المتعلمة من العراق خارج البلاد حيث فقد الكثيرون الأمل وبدأوا في السعي للانتقال إلى بلد آخر. ويخشى العديدون من تفاقم العنف الطائفي، رغم صعوبة تصور ذلك في ظل الأوضاع الحالية، كما يخشى العديدون لجوء الأطراف المتحاربة إلى القصف المدفعي للمناطق الحضرية لأغراض التطهير العرقي. ويخشى العديدون ازدياد وتصاعد العنف الطائفي رغم أن ذلك يبدو مستحيلاً، هناك مخاوف من استعمال المدفعية لإستهداف المناطق الحضرية من أجل التطهير العرقي، وأن تصبح الجماعات المتطرفة أكثر عنفاً، وهذا يجعل الأمور أكثر صعوبة لإيجاد حل سياسي.

وما تزال نتائج نتائج خطة الحكومة الأمنية وعمليات الجيش الأمريكي غير واضحة، لكن من الواضح أن عدداً محدوداً ممن تمت مقابلتهم يشعرون بالتفائل. وأخبرنا شاب سني من حي الشعاب الشيعي بأن وجود جيش المهدي بدأ بالتقلص مؤخراً لكننا "نعرف بأنهم سيعودون". كما يبعث العنف بين فئات المجتمع بحد ذاتها على التشاؤم - شيعة ضد شيعة وسنة ضد سنة - مع انقسام المجموعات المتطرفة وتنافس قادتها على السلطة.

كما يعتقد العديد من النازحين والمهجرين من السنة والشيعية في جميع أنحاء البلاد بأن التهجير والتشريد الطائفي في تزايد مستمر وأن فرص العودة إلى ديارهم - في المستقبل القريب - ضئيلة، وكما قال أحدهم فإن "الحكومة تريدنا

بنشاطات وجرائم المجموعات المتطرفة، إضافة إلى انعدام الخدمات الرئيسية والتأخير في حل نزاعات الملكية، إضافة إلى القتال بين المجموعات المتمردة والقوات المتعددة الجنسيات والتي تتسبب بتهجير ونزوح الآلاف من المدنيين بشكل دوري.

وهناك عدة فئات من النزوح الطائفي، حيث يشكل السنة العرب من المناطق ذات الأغلبية الشيعية المجموعة التي شهدت أعدادها تزايداً كبيراً منذ تفجيرات سامراء، كما تعرض الشيعة في المناطق ذات الأغلبية السنية إلى المزيد من الضغوطات منذ سقوط النظام السابق. كما أجبر العديد من السنة والشيعة العرب الذين قام نظام البعث السابق بتوطينهم، أحياناً رغماً عن إرادتهم في مناطق الشمال الكردية كجزء من برنامج التعريب القسري على المغادرة عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. كما أجبرت بعض الأقليات على الهرب من مناطق السنة والشيعة وتشمل هذه الأكراد والمسيحيين والتركمان والمندائيين-الصابئة والغجر ومواطنو الدول الأخرى خصوصاً الفلسطينيين. كما تقع الأقليات فريسة لاعتداءات العصابات الإجرامية غير الطائفية إما لأنهم يُعتبرون فريسة سهلة لا تتمتع بالحماية عكس السنة والأكراد والشيعة.

### كيف يتعايش العراقيون مع الوضع؟

يقطن أغلبية النازحين مع أقارب لهم أو أصدقاء أو ببساطة اشخاص ينتمون إلى نفس المجموعة، بينما يلجأ بعضهم الآخر إلى احتلال المباني الفارغة، وعدد اللاجئين الذين يسكنون في المخيمات يقل بكثير عن أولئك الذي لجأوا إلى عائلات مضيقة، كما أن أوضاع أولئك في المخيمات أسوأ بكثير من غيرهم بسبب أوضاع الملاجئ السيئة وعدم توفر مرافق الصرف الصحي. واجمالاً يبدو أن معظم العائلات تمكنت من البقاء معاً، لكن من النتائج السلبية لحالات النزوح والتشرد هذه كانت الزيادة في عمالة الأطفال.

وتتسبب ظروف المعيشة الصعبة بكثير من الغضب والاستياء ضد الحكومة، والسلطات المحلية على دراية بهذا فهذه السلطات على مستوى المحافظات والأقاليم على تعامل مباشر مع اللاجئين وتستجيب بشكل أفضل لاحتياجاتهم من وزارات الدولة، ويوجد في كل محافظة لجنة مسؤولة عن قضايا النزوح والتهجير إضافة إلى غرفة عمليات.